

نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد كان للعرب لهجات شتى تنبع من طبيعة فطرتهم فى جرسها وأصواتها وحروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة ، فكل قبيلة لها من اللحن فى كثير من الكلمات ما ليس للآخرين ، إلا أن قريشاً من بين العرب قد تهيأت لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت وساقية الحاج وعمارة المسجد الحرام والإشراف على التجارة ، فأنزلها العرب جميعاً لهذه الخصائص وغيرها منزلة الأب للغاتهم ، فكان طبيعياً أن يتنزل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشى تأليفاً للعرب وتحقيقاً لإعجاز القرآن حين يسقط فى أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه .

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم فى المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذى أوحى الله به لرسوله محمد ﷺ يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعاً بحروفه وأوجه قراءته للخالص منها ، وذلك مما ييسر عليهم القراءة والحفظ والفهم .

ونصوص السنّة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، ومن ذلك :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : أقرأنى جبريل على حرف فراجعتة ، فلم أزل أستزيده ، ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (١) .

وعن أبى بن كعب : « أن النبى ﷺ كان عند أضاة (٢) بنى غفار ، قال : فاتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن

(٢) الأضاة : الغدير .

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

تقرئ أمتك القرآن على حرفين - فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا « (١) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعتُ لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، ثم لبيتته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أفرده إلى رسول الله ، فقلت : يا رسول الله . . إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ، فقال رسول الله ﷺ : أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها ، فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منها » (٢) .

والأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير في مقدمة تفسيره ، وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابيا ، وقد نصَّ أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف (١) .

واختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافاً كثيراً ، حتى قال ابن حبان : « اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً » (٤) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير .

(٣) انظر : « الإتيان » (٤١ / ١) .

(٤) وقال السيوطي : اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً (٤٥ / ١) .

وأكثر هذه الآراء متداخلة ، ونحن نورد هنا ما هو ذو بال منها :

(أ) ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد ، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب فى التعبير عن معنى من المعانى يأتى القرآن مُتَزَلًّا بِالْفَاظِ عَلَى قَدْرِ هَذِهِ اللُّغَاتِ لِهَذَا الْمَعْنَى الْوَاحِدِ ، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتى بلفظ واحد أو أكثر .
واختلفوا فى تحديد اللُّغات السبع .

ف قيل : هى لغات : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر .
وروي غير ذلك (١) .

(ب) وقال قوم : إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه فى جملته لا يخرج فى كلماته عن سبع لغات هى أفصح لغاتهم ، فأكثره بلغة قريش ، ومنه ما هو بلغة هذيل ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أو كنانة ، أو تميم ، أو اليمن ، فهو يشتمل فى مجموعته على اللُّغات السبع .

وهذا الرأى يختلف عن سابقه ، لأنه يعنى أن الأحرف السبعة إنما هى أحرف سبعة متفرقة فى سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة فى كلمة واحدة باتفاق المعانى .
قال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللُّغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن ، وغيرهم ، قال : وبعض اللُّغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً » (٢) .

(ج) وذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة : من الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والجدل ، والقصص ، والمثل . أو من : الأمر ، والنهى ، والحلال ، والحرام ، والمُحكَّم ، والمتشابه ، والأمثال .

(١ ، ٢) انظر : « الإتيقان » (٤٧ / ١) .

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، ومُحَكَّم ، ومتشابه ، وأمثال » (١) .

(د) وذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة ، وجوه التغير السبعة التي يقع فيها الاختلاف ، وهي :

١ - اختلاف الأسماء بالإفراد ، والتذكير وفروعهما : « التثنية ، والجمع ، والتأنيث » كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٢) قرئ « لأماناتهم » بالجمع ، وقرئ « لأمانتهم » بالإفراد . . ورسمها في المصحف « لَأَمَنَّتِهِمْ » يحتمل القراءتين ، خللها من الألف الساكنة ، ومآل الوجهين في المعنى واحد ، فيراد بالجمع الاستغراق الدال على الجنسية ، ويراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة ، أى جنس الأمانة ، وتحت هذا جزئيات كثيرة .

٢ - الاختلاف في وجوه الإعراب : كقوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ (٣) قرأ الجمهور بالنصب ، على أن « ما » عاملة عمل « ليس » وهي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن ، وقرأ ابن مسعود : « ما هذا بشرٌ » بالرفع ، على لغة بني تميم ، فإنهم لا يعملون « ما » عمل « ليس » وكقوله : ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ (٤) - (برفع « آدم » وجر « كلمات ») - وقرئ بنصب « آدم » ورفع « كلمات » : « فتلقى آدم من ربه كلمات » .

٣ - الاختلاف في التصريف : كقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (٥) قرئ بنصب « ربنا » على أنه منادى مضاف ، و« باعد » بصيغة الأمر ، وقرئ « ربنا » بالرفع ، و« باعد » بفتح العين ، على أنه فعل ماض ، وقرئ « بعد » بفتح العين مشددة مع رفع « ربنا » أيضاً .

ومن ذلك ما يكون بتغيير حرف ، مثل « يعلمون ، وتعلمون » بالياء

(٣) يوسف : ٣١

(٢) المؤمنون : ٨

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي .

(٥) سبأ : ١٩

(٤) البقرة : ٣٧

والتاء ، و« الصراط » ، و« السراط » فى قوله تعالى : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) .

٤ - الاختلاف بالتقديم والتأخير : إما فى الحرف ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِسَّ ﴾ (٢) وقرىء : « أفلم يأيس » وإما فى الكلمة كقوله تعالى : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (٣) بالبناء للفاعل فى الأول ، وللمفعول فى الثانى ، وقرىء بالعكس ، أى بالبناء للمفعول فى الأول ، وللفاعل فى الثانى .

أما قراءة « وجاءت سكرة الموت » بدلاً من قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) فقراءة أحادية أو شاذة ، لم تبلغ درجة التواتر .

٥ - الاختلاف بالإبدال : سواء أكان إبدال حرف بحرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعُظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ (٥) قرىء بالزاي المعجمة مع ضم النون ، وقرىء بالراء المهملة مع فتح النون ، أو إبدال لفظ بلفظ ، كقوله تعالى : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٦) قرأ ابن مسعود وغيره « كالصوف المنفوش » ، وقد يكون هذا الإبدال مع التقارب فى المخارج كقوله تعالى : ﴿ وَطَلْحَ مَنضُودٍ ﴾ (٧) قرىء « طلع » ومخرج الحاء والعين واحد ، فهما من حروف الخلق .

٦ - الاختلاف بالزيادة والنقص : فالزيادة كقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (٨) قرىء « من تحتها الأنهار » بزيادة « من » وهما قراءتان متواترتان ، والنقصان كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ بدون واو ، وقراءة الجمهور : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٩) وبالواو ، وقد يمثل للزيادة فى قراءة الأحاد ، بقراءة ابن عباس : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » بزيادة « صالحة » وإبدال كلمة « أمام » بكلمة « وراء » وقراءة الجمهور : ﴿ وَكَانَ »

(٣) التوبة : ١١١

(٢) الرعد : ٣١

(١) الفاتحة : ٦

(٦) القارعة : ٥

(٥) البقرة : ٢٥٩

(٤) سورة ق : ١٩

(٩) البقرة : ١١٦

(٨) التوبة : ١٠٠

(٧) الواقعة : ٢٩

وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿١﴾ كما يمثل للنقصان بقراءة « والذكر والأثنى » بدلاً من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ (٢) .

٧ - اختلاف اللّهجات بالتفخيم والترقيق ، والفتح والإمالة ، والإظهار والإدغام ، والهمز والتسهيل ، والإشمام ونحو ذلك : كالإمالة وعدمها في مثل قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ (٣) قرىء بإمالة « أتى » و« موسى » وترقيق الراء في قوله : ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٤) وتفخيم اللام في « الطلاق » وتسهيل الهمزة في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ (٥) وإشمام الغين ضمة مع الكسر في قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ (٦) وهكذا .

(هـ) وذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له ، وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد ، فهو إشارة إلى القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله مع بلوغه الذروة في الكمال ، فلفظ السبعة يُطلق على إرادة الكثرة والكمال في الأحاد ، كما يُطلق السبعون في العشرات ، والسبعمائة في المئتين ، ولا يُراد العدد المعين (٧) .

(و) وقال جماعة : إن المراد بالأحرف السبعة : القراءات السبع .

والراجع من هذه الآراء جميعاً هو الرأي الأول ، وأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد ، نحو : أقبل وتعال ، وهلم ، وعجّل ، وأسرع ، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ، وإليه ذهب سفيان بن عيينة ، وابن جرير ، وابن وهب ، وخلائق ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكر : « أن جبريل قال : يا محمد ، اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ،

(٣) طه : ٩

(٢) الليل : ٣

(١) الكهف : ٧٩

(٦) هود : ٤٤

(٥) المؤمنون : ١

(٤) الإسراء : ١٧

(٧) انظر : « الإتيان » (٤٥ / ١) .

وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعَجِّلْ » (١) قال ابن عبد البر : « إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها ، لا يكون في شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب » (٢) .
ويؤيده أحاديث كثيرة :

« قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغير عليه ، فقال : لقد قرأت على رسول الله ﷺ فلم يُغير عليّ ، قال : فاختصما عند النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ألم تُقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع في صدر عمر شيء ، فعرف النبي ﷺ ذلك في وجهه ، قال : فضرب صدره وقال : « ابعِد شيطاناً » - قالها ثلاثاً - ثم قال : « يا عمر ، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة » (٣) .

وعن بسر بن سعيد : « أن أبا جهيم الأنصارى أخبره : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا رسول الله ﷺ عنها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف ، فلا تماروا في القرآن ، فإن المرء فيه كفر » (٤) .

وعن الأعمش قال : « قرأ أنس هذه الآية : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قبلاً » (٥) ، فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ، إنما هي « وأقوم » ، فقال : أقوم وأصوب وأهياً واحداً » (٦) .

(١) أخرجه أحمد والطبراني ، بإسناد جيد ، وهذا اللَّفْظ لأحمد .

(٢) انظر : « الإتيقان » (٤٧/١) .

(٣) أخرجه أحمد بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجه الطبري .

(٤) رواه أحمد في « المسند » ورواه الطبري ، ونقله ابن كثير في « الفضائل » ، والهيثمي

في « مجمع الزوائد » ، وقال : رجاله رجال الصحيح .

(٥) المزمّل : ٦ بلفظ : « وأقوم » .

(٦) رواه الطبري ، وأبو يعلى ، والبيزار ، ورجالهم رجال الصحيح .

وعن محمد بن سيرين قال : نُبِئتُ أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي ﷺ ، فقال له جبرائيل : اقرأ القرآن على حرفين ، فقال له ميكائيل : استزده ، قال : حتى بلغ سبعة أحرف ، قال محمد : لا تختلف في حلال ولا حرام ، ولا أمر ولا نهى ، هو كقولك : تعال ، وهلم ، وأقبل ، قال : وفي قراءتنا : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) في قراءة ابن مسعود : « إن كانت إلا زقية واحدة » (٢) .

ويُجاب عن الرأي الثاني (ب) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عنها فهو يشتمل في مجموعه عليها - بأن لغات العرب أكثر من سبع ، وبأن عمر ابن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة ، وقبيلة واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، فدل ذلك على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يقصدونه ، ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ في معنى واحد ، وهو ما نرجحه .

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق الأدلة ، مبطلاً هذا الرأي : « بل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، هن لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، وقصدى ، ونحوى ، وقُربى ، ونحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذى روينا آنفاً عن رسول الله ﷺ ، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك : « هلم وتعال وأقبل » ، وقوله : « ما ينظرون إلا زقية » ، و« إلا صيحة » .

وأجاب الطبري عن تساؤل مفترض : ففي أى كتاب الله نجد حرفاً واحداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ؟ - أجاب : بأننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم - وعن تساؤل مفترض آخر : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ؟ - بأن الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيِّرت في قراءته وحفظه بأى تلك

(١) يس : ٢٩ ، ٥٣

(٢) رواه الطبري ، ومحمد - هو ابن سيرين التابعي - فالحديث مرسل .

الأحرف السبعة شاءت كما أمرت ، ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة في زمن عثمان ، ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك ، وهي معصومة من الضلالة (١) .

ويجاب عن الرأي الثالث (ج) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه : من الأمر ، والنهى ، والحلال ، والحرام ، والمُحَكَّم ، والمتشابه ، والأمثال - بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تُقرأ على وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة ، والشئ الواحد لا يكون حلالاً وحراماً فى آية واحدة ، والتوسعة لم تقع فى تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا فى تغيير شئ من المعانى المذكورة .

والذى ثبت فى الأحاديث السابقة أن الصحابة الذى اختلفوا فى القراءة احتكموا إلى النبى ﷺ ، فاستقرأ كل رجل منهم ، ثم صوّب جميعهم فى قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال ﷺ للذى ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم : « إن الله أمرنى أن أقرأ على سبعة أحرف » .

« ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلاً أن يصوّب جميعهم ، ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه ، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شئ بعينه وفرضه ، - فى تلاوة من دلت تلاوته على فرضه - ونهى عن فعل ذلك الشئ بعينه وزجر عنه - فى تلاوة الذى دلت تلاوته على النهى والزجر عنه - وأباح وأطلق فعل ذلك الشئ بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعل فعله ، ولمن شاء منهم أن يتركه تركه ، فى تلاوة من دلت تلاوته على التخيير .

وذلك من قائله - إن قاله - إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله ومحكم كتابه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢) .

(١) انظر « تفسير الطبرى » (٥٧/١) وما بعدها . (٢) النساء : ٨٢

وفى نفي الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد ﷺ إلا بحكم واحد متفق فى جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة « (١) .

ويجاب عن الرأى الرابع (د) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغيرات التى يقع فيها الاختلاف (٢) - بأن هذا وإن كان شائعاً مقبولاً لكنه لا ينهض أمام أدلة الأول التى جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى ، وبعض وجوه التغيرات والاختلاف التى يذكرونها ورد بقراءات الآحاد ، ولا خلاف فى أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً ، وأكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغيرات فى اللفظ ، كاختلاف فى الإعراب ، أو التصريف ، أو التفخيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والإشمام فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فى اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً .

وأصحاب هذا الرأى يرون أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، بمعنى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من هذه الأحرف ، فآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٣) ، التى تُقرأ بصيغة الجمع وتقرأ بصيغة الأفراد جاءت فى الرسم العثمانى ﴿ لِأَمْتِهِمْ ﴾ - موصولة وعليها ألف صغيرة - وآية : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (٤) جاءت فى الرسم العثمانى ﴿ بَعْدُ ﴾ - موصولة كذلك وعليها ألف صغيرة ، وهكذا .

وهذا لا يسلم لهم فى كل وجه من وجوه الاختلاف التى يذكرونها . كالاختلاف بالزيادة والنقص ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (٥) . وقُرئ : « من تحتها الأنهار » بزيادة « من » ، وقوله :

(١) « تفسير الطبرى (٤٨/١ - ٤٩)

(٢) هذا الرأى هو أقوى الآراء بعد الرأى الذى اخترناه ، وإليه ذهب « الرازى » وانتصر له من المتأخرين الشيخ محمد بخيت المطيعى ، والشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى .

(٣) المؤمنون : ٨ (٤) سبأ : ١٩ (٥) التوبة : ١٠٠

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (١) ، وَقُرِيءَ : « والذكر والأنثى » بنقص
« ما خلق » .

والاختلاف بالتقديم والتأخير فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ
بِالْحَقِّ ﴾ (٢) وَقُرِيءَ : « وجاءت سكرت الحق بالموت » . . والاختلاف بالإبدال
فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٣) وَقُرِيءَ : « وتكون
الجبال كالصوف المنفوش » .

ولو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف العثمانية لما كان مصحف عثمان
حاسماً للنزاع فى اختلاف القراءات ، إنما كان حسم هذ النزاع بجمع الناس على
حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ولولا هذا لظل الاختلاف فى
القراءة قائماً ، ولما كان هناك فرق بين جمع عثمان وجمع أبى بكر ، والذى دلت
عليه الآثار أن جمع عثمان رضى الله عنه للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من
الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد ، حيث رأى أن القراءة
بالأحرف السبعة كانت لرفع الحرج والمشقة فى بداية الأمر ، وقد انتهت الحاجة إلى
ذلك ، وترجع عليها حسم مادة الاختلاف فى القراءة ، يجمع الناس على حرف
واحد ، ووافقته الصحابة على ذلك ، فكان إجماعاً ، ولم يحتج الصحابة فى أيام
أبى بكر وعمر إلى جمع القرآن على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث فى
أيامهما من الخلاف فيه ما حدث فى زمن عثمان ، وبهذا يكون عثمان قد وُفِّقَ لأمر
عظيم ، رفع الاختلاف ، وجمع الكلمة ، وأراح الأمة .

ويجاب عن الرأى الخامس (هـ) الذى يرى أن العدد سبعة لا مفهوم له - بأن
الأحاديث تدل بنصها على حقيقة العدد وانحصاره : « أقرأنى جبريل على حرف ،
فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (٤) ، « وإن ربي
أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه أن هوون على أمتي - فأرسل إلى
أن أقرأ على سبعة أحرف » (٥) ، فهذا يدل على حقيقة العدد المعين المحصور فى
سبعة .

(٣) القارعة : ٥
(٥) أخرجه مسلم .

(٢) سورة ق : ١٩

(١) الليل : ٣

(٤) أخرجه البخارى ، ومسلم .

ويجاب عن الرأى السادس (و) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع - بأن القرآن غير القراءات ، فالقرآن : هو الوحي المنزّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات : هى اختلاف فى كيفية النطق بألفاظ الوحي ، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك ، قال أبو شامة : « ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل » (١) .

وقال الطبرى : « وأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبى ﷺ : « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل ، لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن - مما اختلفت القراءة فى قراءته بهذا المعنى يوجب المراء به كفر الممارى به فى قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر ، من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية » .

ولعل الذى أوقعهم فى هذا الخطأ الاتفاق فى العدد سبعة ، فالتبس عليهم الأمر ، قال ابن عمار : « لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغى له ، وأشكل الأمر على العامة بإبهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر ، وليته إذا اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة » .

وبهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأى الأول (أ) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد هو الذى يتفق مع ظاهر النصوص ، وتسانده الأدلة الصحيحة .

عن أبي بن كعب قال : « قال لى رسول الله ﷺ : إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رَبَّ حَقَّفُ عن أمتى ، فأمرنى ، قال : اقرأ على حرفين ، فقلت : رَبَّ حَقَّفُ عن أمتى ، فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة ، كلها شاف كاف » (٢) .

(١) انظر : « الإتيان » (١ / ٨٠) . (٢) رواه مسلم والطبرى .

قال الطبرى : « والسبعة الأحرف : هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة ، والأبواب السبعة من الجنة هي المعانى التى فيها ، من الأمر والنهى والترغيب والترهيب والقصص والمثل ، التى إذا عمل بها العامل ، وانتهى إلى حدودها المنتهى ، استوجب به الجنة ، وليس والحمد لله فى قوله من قال ذلك من المتقدمين خلاف لشيء مما قلناه » ، ومعنى : « كلها شاف كاف » كما قال جل ثناؤه فى صفة القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . . جعله الله للمؤمنين شفاء ، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته » (٢) .

* * *

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف فى أمور :

١ - تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين ، لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع ، فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه - وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث فى عبارات :

عن أبيّ قال : « لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال : إني بُعثتُ إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ العاس والعجوز ، فقال جبريل : فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف » (٣) ، « إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف ، فقلت : اللّهُمَّ رَبِّ حَقِّفْ عَنْ أُمَّتِي » ، « إن الله يأمرك أن تُقرء أمتك القرآن على حرف ، قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك » .

٢ - إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب - فتعدد مناحي التأليف

(١) يونس : ٥٧ (٢) انظر : « الطبرى » (٤٧/١ ، ٦٧) .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والطبرى بإسناد صحيح ، وأحجار المراء : موضع بقاء ، وعسا الشيخ : كبر وأسن وضعف .

الصوتى للقرآن تعدداً يكافىء الفروع اللسانية التى عليها فطرة اللّغة فى العرب حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطرى ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذى تحدى به الرسول العرب ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازاً للسان دون آخر ، وإنما يكون إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها عند العرب .

٢ - إعجاز القرآن فى معانيه وأحكامه - فإن تقلب الصور اللفظية فى بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التى تجعل القرآن ملائماً لكل عصر - ولهذا احتج الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة .

* * *